الحياة
تجريبي

الجنود مسيحيون والجيش يهودي... كيف؟

رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتانياهو أصدر قبل أسابيع توجيهاً بإقامة ما سماه منتدى مشتركاً بين حكومته والطائفة المسيحية، بهدف «... العمل على انخراط المسيحيين في الجيش والخدمة المدنية، ودمجهم في الحياة العامة في الدولة». ويذكرنا هذا المسعى بجهود إسرائيلية سابقة، تتعلق بممارسة السياسة الاحتوائية ذاتها، على من تصفهم إسرائيل بقطاعَي الدروز والبدو. لن نستطرد هنا إلى هذه الجهود السابقة. ما يعنينا في هذا المقام أنه بفعل السياسات الإسرائيلية الاستئصالية والقمعية، التي لم تستثن شريحة من الشعب الفلسطيني الأصيل، لم يتبق من المسيحيين في أرض مهد المسيح والبعثة المسيحية الآن سوى نحو 200 ألف نسمة فقط، وأن القائمين على هذه السياسات يتحرقون إلى استدراج هذه البقية وإقحامها داخل الشعاب الإسرائيلية الشائكة. هذا أمر معلوم لدى الكثيرين منذ عقود، وما كان له أن يسترعي انتباهنا في شكل استثنائي اليوم، لولا أنه جد جديد فارق يؤكد أننا إزاء حالة ارتباك وتناقض في هذا الإطار.

فتكثيف العمل لتجنيد المسيحيين وإدماجهم يتعارض إلى درك التناقض مع الاتجاه الإسرائيلي، القائم على قدم وساق، إلى إشهار يهودية الدولة وتعميق أبعاد التمييز ضد غير اليهود داخلها وخارجها. من المهم جداً ملاحظة أن بعض ما كان محتمل التطبيق بوتيرة أو أخرى لعشرات السنين، في سياق ما يعرف بعمليات الأسرلة أو حتى الصهينة لفلسطينيي 1948، ما عاد قابلاً للمرور والنفاذ في ظل عملية التهويد الكامل للدولة. فالأسرلة أمر واقع على كل من يحمل بطاقة هوية وجواز سفر إسرائيليين. هي مكانة قانونية وسياسية تحدد صلة الدولة بمواطنيها وتنسبهم إليها. وهنا قد يكون المواطن إسرائيلياً يهودياً أو إسرائيلياً مسلماً أو إسرائيلياً مسيحياً أو إسرائيلياً غير ذلك. كما يصح أن يكون فلسطينياً عربياً وفقاً لهويته القومية التاريخية ولكنه إسرائيلي بحكم بطاقة الهوية وجواز السفر، وهذه هي وضعية فلسطينيي 1948.

وعلى صعيد آخر لا يصعب الجمع أو تعزّ المزاوجة بين القناعات الصهيونية وأية جنسية لدى أي شخص في هذا العالم الفسيح.

دائرة الصهاينة والمتصهينين كانت ومازالت أوسع بكثير من دائرة اليهود والإسرائيليين. الولايات المتحدة وحدها تضم زهاء 80 مليوناً من الأميركيين المعتنقين أفكاراً صهيونية، وهناك مثل هذا العدد تقريباً من الأوروبيين. وفي الوقت ذاته، ثمة يهود لا يمكن تصنيفهم كصهاينة، لعدم قناعتهم بالصهيونية، بل إن منهم من يناهضها ويناصبها العداء ويقاوم توجهاتها الانعزالية العنصرية. في سياق المداراة على مضامينها وأبعادها اليهودية الصرفة، كان بوسع إسرائيل الدولة التعامل مع حاملي جنسيتها من غير اليهود تحت عنوان المواطنة وقوانينها، التي تدّعي مراعاة المثل الديموقراطية. وكان يمكن مواطني هذه الدولة من غير اليهود أن يعيشوا داخلها، مع الاجتهاد إلى أقصى المتاح لأجل المساواة وتطبيق شعائر دولة كل مواطنيها. غير أن التركيز المتبجح راهناً ومستقبلاً على يهودية إسرائيل، يجبّ أسس هذا التعامل، أو لنقل هذا التعايش الصعب، بينها وبين مواطنيها غير اليهود. فهذا الاتجاه يقود بالضرورة إلى انكماش طرفي العلاقة على ذواتهما. بمعنى أن تقوقع الدولة على ذاتها اليهودية، سوف يقابل بتقوقع غير اليهود فيها على ذواتهم. وهو تصور يطاول القطاع المسيحي داخل دائرة فلسطينيي 48. وعليه، لا تتسق الدعوة الفوارة إلى يهودية إسرائيل مع الدعوة إلى دمج المسيحيين أكثر فأكثر فيها، وصولاً إلى إلحاقهم بجيشها، الذي يفترض أنه سيصبح على نحو محدد بصرامة جيش اليهود والدولة اليهودية، لا جيش دولة تدّعي المساواة بين كل مواطنيها.

صدور هاتين الدعويين المتعاكستين في شكل متزامن عن أعلى سلطة في إسرائيل دليل قوي على فوضى الخيارات والتوجهات. وعلى عادة إسرائيل في التعلق بكل من هو شارد عن الإجماع، فلسطينياً أو عربياً، فقد تطلع نتانياهو إلى دعم دعوته من لدن طرف مسيحي متواطئ. وهو وجد ضالته في تعاطف أحد الكهنة الأرثوذكس في الناصرة، الذي أثنى على فعلته ووعد بدعمها وتسويقها. لكن البطريرك السابق للاتين ميشيل صباح، المعروف بشعبيته الجارفة في الوسط الفلسطيني المسيحي وغير المسيحي، استنكر هذه الدعوة وشجبها، مشيراً إلى أن «... هناك توافقاً مسيحياً على رفض الانضمام إلى جيش، إحدى مهماته ممارسة العدوان والاحتلال على الشعب الفلسطيني والشعوب العربية، فيما مهمته الأخرى هي محاولة صهر مكونات التجمع الإسرائيلي في بوتقة واحدة، صهيونية الهوية والفكر».

والحق، إن إشارة البطريرك الشجاع إلى المهمة الأولى للجيش هي صحيحة تماماً، أما تشخيصه للمهمة الثانية فيحتاج إلى إعادة نظر في ضوء تعويم الهوية اليهودية وتأكيد صدارتها في إسرائيل. إن الاتجاه الآخذ في التبلور رسمياً، يستهدف إزالة المسافة المحدودة بين إسرائيل واليهودية. ولما كانت اليهودية دائرة مغلقة عقيدياً، لا يصح النفاذ أو الانتماء إليها من غير اليهود، فإن الهدف الأسمى من تجييش المسيحيين والبدو والدروز ومن تيسر من فلسطينيي 48، هو إشاعة المزيد من الفرقة والتناحر وشق ذات البين داخل هذه الشريحة.

إن الذين يسعون إلى تهويد إسرائيل من رأسها إلى أخمصها، لا يمكنهم بالمطلق أن يصدقوا في دعوتهم إلى دمج غير اليهود في صلبها ونواتها الأقوى، الجيش. الحقيقة أنهم يضمرون إثارة قضية خلافية وإلقاءها في وجه الجماعة المسيحية الفلسطينية الأصيلة. وقد فعلوها من قبل مع فئات أخرى على أسس قبلية أو إقليمية أو طائفية. وهذا بالضبط ما تنبّه إليه مجلس الأرثوذوكس لفلسطينيي 48، حين دعا إلى مقاطعة الكاهن المتعاون ومن على شاكلته من أبناء الطائفة، وسخر من نتانياهو ومنتداه العتيد... الذي يقصد شق المجتمع الفلسطيني في إسرائيل. ونحسب أن نتانياهو وبـــطانته يتحركون بوحي من هذا الهدف رغم درايتهم بصعوبة إنجازه سابقاً واستحالته المنطقية في الحال والاستقبال، لكنهم في ما يبدو لم ولن يملّوا من المحاولة.

* كاتب فلسطيني